مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 09 عدد: 3 السنة: 2020
ص: 340 - 362 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

التّراث المسيحيّ في فكر الرّابطة القلميّة وأدبها

The Christian Heritage in the Ideology of the (Pen League) and its Literature

* خديجة برودي[1] ، أ د محمد مرتاض[2]

Khadidja Baroudi, Mohamed Mortadh

كلية الأدب، جامعة أبي بكر بلقايد (تلمسان)

University of Tlemcen- Algeria

baroudi.khadidja2@gmail.com

تاريخ الإرسال:2019/12/01.	تاريخ القبول:2020/04/13	تاريخ النشر : 2020/09/15

ملخص البحث

إنّ الأدب العربي، وعبر تاريخه الطّويل، ظلّ محافظا على أصالته العربيّة وقيَمه الإسلاميّة، وكلّ الأسس الّتي بني عليها، وكان على ذلك، إلى أن أطلّت علينا الحداثة بإغراءاتها الكثيرة؛ وعلى رأسها الحريّة الفكريّة والأدبيّة، والّتي جنت على أدبنا العربي بصورة كبيرة، فما عدنا نسمع غير صداها يتردّد وحدث أن طرأ على الأدب عدّة تغيّرات مسّت كلّ شيء فيه، ووصل الأمر بطائفة من مروجي الحداثة إلى إقحام الفكر الغربيّ والتّراث المسيحيّ في الأدب العربيّ الحديث، وهذا ما كان وبالاً على الأدب العربيّ والثّقافة الإسلاميّة، بما أنّ الطّابع المسيحيّ؛ برموزه وأفكاره وأساليبه قد استفحل كثيرا لاسيما عند الرّابطة القلميّة صاحبة الفضل الأكبر في ظهور التّقاليد المسيحيّة في الأدب العربيّ والّتي ضربت بعرض الحائط قدسيّة تقاليدنا العربيّة وميراثنا الشّعريّ، وثقافتنا الإسلاميّة.

الكلمات المفتاح: التّراث المسيحي؛ الرّابطة القلميّة؛ الحداثة؛ الثّقافة الإسلاميّة؛ الفكر الغربي؛ الأدب العربيّ؛ الحريّة الفكريّة.

Abstract :

Arab literature, throughout its long history, has maintained its Arab authenticity and Islamic values, and all the foundation on which it is based. This was until modernity, and its various temptation, came to us. Above all, is the intellectual and literary freedom which has greatly condemned our Arab literature so we are only to hear its echo repeats itself? There have been

* خديجة برودي . baroudi.khadidja2@gmail.com

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

several changes in literature that affect everything in it. Some ranges of promoters of modernity inculcate Arab thought and Christian heritage in modern Arab literature. This latter badly affected both Arab literature and Islamic culture.Since the Christian character, with its symbols, ideas and methods, has greatly increased in the Pen League which has the greatest credit in the emergence of Christian traditions in the modern Arab literature which also struck down the sanctity of our Arab traditions, our poetic heritage and our Islamic culture.

Keywords: Christian Heritage, Pen League, Modernity, Islamic Culture, Western Thought,-Intellectual Freedom.

استهلال:

إلى وقت ليس ببعيد كانت الثّقافة الإسلاميّة هي من تستحوذ على الفكر العربيّ وتحكم الكتابة الأدبيّة، وتوجّه الأدباء، وكان القرآن الكريم بلغته وأسلوبه أنموذجا للكتابة الجيّدة، ولم نلف كاتباً أو شاعراً، مسلماً أو مسيحيّاً، خرج عن هذا الإطار العام أو أتى بما لا يتناسب مع هذه الثّقافة خلال كلّ الأطوار الّتي مرّ بها أدبنا العربيّ، إلى أن احتككْنا بالفكر الغربيّ، ووقعنا ضحيّة لحداثة أقلّ ما يُقال عنها هي همٌّ ووهم كبير تسلّط علينا، فراح كلّ لسان يصدح بما عنده وبما يمتلكه من أفكار سامّة ومقيتة تُسيء إلى أدبنا العربيّ، وكلّ هذا ليتشرّف بلقب الحداثيّ، ويحسب من أهلها ويلتحق بركبها وبطبيعة الحال حدث كلّ ذلك ونحن في حالة تخدير تام، وأخذت الحداثة تلعب لعبتها بداعي التّطوّر ومغلّفة مراميها بشعار النّهضة الأدبيّة والحريّة الفكريّة، الّتي لسنا ضدّها إذا ما خدمت أدبنا العربيّ بما يتلاءم مع شخصيّتنا وثقافتنا، أمّا أن تلبسنا ثوبا ليس على مقاييسنا فهذا ما لا يمكن تقبّله والسّماح به، ومن هنا أخذت مطالب التّغيّير تتوالى كلّ يوم على أدبنا ساعة باسم التّطوّر، وساعة باسم الحريّة، فظهر ما لم يكن موجوداً، وتسلّل شيئا فشيئا إلى أن فرض نفسه على أدبنا العربيّ الحديث، وهذا ما لمسناه فعلا مع الثّقافة المسيحيّة الّتي زاحمت الثّقافة الإسلاميّة حتّى كادت تلغي معالمها، فطغت الألفاظ المسيحيّة، وأصبح الأدباء يتكلّمون بلغة الإنجيل والتّوراة، ويكتبون وفق أسلوبهما، بل ويتفاخرون وينوّهون بأنّ أسلوب الإنجيل هو أرقى الأساليب وهو تيّار حمل لواءه الأدباء المسيحيّون في الوطن العربيّ، وتُعْزَى هذه الخطوة الجريئة في حقّ أدبنا العربيّ إلى أدباء الرّابطة القلميّة، وعلى رأسهم زعيمهم "جبران خليل

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

جبران" الّذي يعدّ بحقّ إمام التّيّار المسيحيّ ورسوله في الأدب العربيّ، ومن ورائه رابطته، فتجلببوا بجلبابه، وأصبحت أعمالهم وجها آخر للتّبشير المسيحيّ، فيا ترى إلى أيّ حدّ وصل انتماؤهم للدّين المسيحيّ؟ وهل كانوا مخلصين له؟ أتراهم أعلنوا اتّجاههم الفكري صراحة؟ أم كانت أفكارهم مبيّتة ومستترة ترجمتها فقط أعمالهم؟ فيمَ ظهرت مسيحيّتهم؟ وكيف كانت خدمتهم لهذا التّيّار؟ وكيف رسّخوا هذه الثّقافة في الأدب العربيّ؟ وهل أبانت أعمالهم عن انتمائهم وفكرهم المسيحي؟

1/ الانتماء الدّيني لأدباء الرّابطة القلميّة:

أصبح من المعلوم أنّ الأدباء الّذين تشكّلت منهم الرّابطة القلميّة هم مسيحيّو الدّيانة والمسيحيّة عندهم كالإسلام عندنا ترشّفوها مع حليب أمّهاتهم، وترعرعوا على مبادئها وتعاليمها وقد استوطنت قلوبهم، وترسّخت في عقولهم، وهذا ما عملت عليه أسرهم بالأساس، لأنّها هي من أدّت دورا كبيرا في غرس حبّ المسيحيّة ومعتقداتها لديهم منذ نعومة أظافرهم، فعاشوا في جوّ مسيحيّ خالص تأثروا معه أشدّ التّأثر بالكتاب المقدّس[1]، ثمّ تلتها حركة التّعليم كخطوة ثانيّة وإليها يرجع الفضل الأكبر في توطيد دعائم الدّين المسيحيّ وترسيخه، ولولاها لما استمرّت هذه الصّبغة الدّينيّة، فهي من جعلت من الدّين رفيقا لهؤلاء الشّعراء في كل مراحل التّعليم الّتي مرّوا بها في وطنهم، حيث إنّ التّعليم في تلك الحقبة كانت تشرف عليه الإرساليّات التّبشيريّة، الّتي كانت بمثابة الرّاعي الرّسمي لهذه الحركة، وهي من قامت بتوجيههم الوجهة الدّينيّة حسب معتقد كلّ طائفة وبهذا يكون الدّين هو الهدف الّذي يحرّك كلّ أجهزة التّعليم[2]، كما يعدّ الحجر الأساس الّذي بني عليه. وهكذا تجسّد حبّهم وانتماؤهم لهذا الدّين الّذي ما فتئ أن تملّك كيانهم واستحكم حياتهم، فالرّوح "الدّينيّة الّتي تمتّع بها هؤلاء المهاجرون (...) ترجع بهم إلى النّشأة الأولى وطريقة التّعليم (...) فليس غريبا إذن أن ينشأ هؤلاء الأدباء نشأة مسيحيّة يكون الكتاب المقدّس معها هو الحقيقة الأولى في حياتهم"[3]، بل وأكثر من ذلك فقد بلغ من شأن هذا الكتاب المقدس أن جعلوه منهجا لحياتهم وأعمالهم، وتعلّقوا به أيّما تعلّق فلقد: "استقرّ الإنجيل وتعاليم الدّين المسيحيّ وموروثات البيئة المسيحيّة المتعصّبة في نفوس شعراء المهجر"[4]، فما كان لهم إلّا أن تمثّلوها بسلوكيّاتهم، وأصبحت تجري منهم مجرى الدّم في العروق وجعلوها أقوى ما يتمسّك به، فكانوا بذلك أوّل من نادى بتفضيل الرّابط الدّيني وإيثاره على كلّ الرّوابط الأخرى، بما فيها رابط القوميّة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

العربية[5]، وبذلك يكون: "جبران وزملاؤه من كتّاب الرّابطة القلميّة، الرّسل الأمناء الحقيقيّين الّذين راحوا يبشّرون بالمبادئ المسيحيّة"[6]، ليس كرجال دين، بل كأدباء سخّروا أدبهم وجنّدوا أقلامهم للتّعريف بهذا الدّين وتحبيبه في قلوب قارئيّ أدبهم، كيف لا وهم من تغذّوْا بلباب المسيحيّة وما في كتبها المقدّسة –كما يروق لهم تسميتها– من آيات شعريّة نافذة التّعبير[7] .

والواقف على أعمال هؤلاء يدرك جيّدا أنّهم كانوا على قدر كبير من الزّهو والافتخار بانتمائهم لملّة المسيح والدّين المسيحيّ، وهذا ما عبّر عنه صراحة جبران خليل جبران في قوله: "أنا مسيحيّ ولي فخر بذلك..."[8]. وقد اختار جبران لنفسه أسلوب حياة سار عليه، قوامه الدّين الّذي آثره واستضاء به وعانقه روحيّا، وكثيرا ما كان ينكبّ على قراءة الأناجيل والتّوراة[9]، ويقضي معظم وقته في رحابهما، وعُرفَ عنه أنّه بدأ حياته بقراءة مزامير داود، وقام بحفظها جميعها، لدرجة أصبح معها يتصوّر نفسه نبيّا مرسلاً سواء في تصرّفاته أو حتّى في كلامه، أليس هو القائل: "أقول لكم إنّما الشّاعر رسول يُبلّغ الرّوح الفرد ما أوحاه إليه الرّوح العام، فإن لم يكن هناك رسالة فليس هناك من شاعر"[10]،وهذه النّظرة للشّاعر تعكس توجهه الفكري القائم أساساً على الدّين المسيحيّ، وكثيرا ما كان يعمد إلى الاطّراد في حديثه على نهج الإنجيل، ويتولّى مهمّة النّصح وموعظة الجيل على طريقة المسيح كذلك[11]، وهكذا كان تأثير المسيحيّة على جبران خليل جبران ورفقائه في الرّابطة كبيرا، مادام أنّهم عاشوا بها ومعها ولأجلها وسخّروا أدبهم للتّعريف بها.

2/ المسيحيّة في الفكر والأدب العربي:

كنّا نقرأ قديما عن أدب عربيّ إسلاميّ الملامح والمضمون، إسلاميّ اللّغة والأسلوب، أمّا اليوم فلا حديث إلّا عن أدب عربيّ جديد، أدب نهضوي، أدب حداثيّ، سمّه كما يحلو لك إلّا أن تقول عنه أنّه أدب عربيّ إسلاميّ، فهذا ما لا يمكنك فعله، لأنّه حينها طبعا سيشار إليك بأصابع الاتّهام، وتنعت بالرّجعيّة. فأدبنا العربيّ ومنذ بعثة النبيّ (صلّى الله عليه وسلّم)، أصبح يتميّز بطابع إسلاميّ ارتبط معه شكلا ومضمونا، وأصبح من غير الممكن فصلهما عن بعضهما. وبذلك يكون الإسلام هو الوجه الثّاني لأدبنا العربيّ والمنهل الّذي يستقي منه مضامينه وأفكاره لأنّ: "إسلاميّة الأدب ترتبط بالفكر الإسلاميّ والعقيدة، وعلى ضوئهما نتصوّر الأدب الإسلاميّ"[12]، فالمضمون الفكري لأدبنا نابع من قيّم الإسلام هكذا عهدناه، ولكن مع الغزو

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفكريّ والّذي اجتاح أدبنا العربيّ، دخلت قيّم جديدة لا عهد لأدبنا بها، قيّم غربيّة منافيّة لطبيعة الأدب العربيّ وقيّم الإسلام وهذا ما أقرّه جبران حينما قال: "إنّ الشّرق بكليّته، ذلك الشّرق الممتدّ من المحيط إلى المحيط قد أصبح مستعمرة كبرى للغرب، أمّا الشّرقيّون، الشّرقيّون الّذين يُفاخرون بماضيهم ويتباهون بآثارهم ويتبجّحون بأعمال جدودهم، فقد صاروا عبيداً بأفكارهم وميولهم ومنازعهم للفكرة الغربيّة والميول الغربيّة والمنازع الغربيّة"[13]،وهذه الأفكار حتما أفكارا مبنيّة على الدّين المسيحيّ، لأنّ الفكر كالأدب بن بيئته والبيئة المسيحيّة تفرز فكرا مسيحيّاً، وجبران نفسه اتّكأ على آداب الغرب وأفكارهم.

وهذه الأفكار –ذات الطّابع المسيحيّ– هي من جعلت أدب الغرب يتميّز ويفوق الأدب العربي حسب رأي نعيمة الّذي قال إنّه من الضّروري: "أن نعترف ولو بفضل واحد للغرب، وهو فضل آدابه على آدابنا وما تعوّد البعض أن يدعوه "نهضة أدبيّة" عندنا ليس سوى نفحة هبّت على بعض شعرائنا وكتّابنا من حدائق الآداب الغربيّة، فدبّت في مخيّلاتهم وقرائحهم كما تدبّ العافيّة في أعضاء المريض بعد إبلاله من سقم طويل"[14]، فنحن ماذا أخذنا من آداب هؤلاء؟ ألم نستعر منهم أفكارهم ومضامين إبداعاتهم وحتى طريقة معالجتهم لها؟ أليست مضامين أفكارهم نابعة من قيم دينهم المسيحي، إذًا فهذا اعتراف صريح من جبران ونعيمة من أنّ الأدب الّذي ميّز هذه الفترة بما فيها أدبهم هو أدب غربي الملامح والمضمون والأفكار وهذا الأدب المستعار هو أدب الحداثة الجديد والّذي يتشكّل في أظهر صوره وأشكاله من ثلاثة ملامح أساسٍ وهي: " الوثنيّة، والماديّة الإلحاديّة، والنّصرانيّة، وقد تشكّلت هذه الصّورة القاتمة كما ذكرنا... على يد نصارى العرب من المهجريّين"[15]وهذه الثّلاثيّة هي سمة لأدب ما يسمّى بالحداثة، والّتي أقحمتها عنوة في أدبنا العربيّ جماعة الرّابطة القلميّة، وبذلك يكونون قد: "جعلوا الأدب محضا للعقيدة والفكر المسيحيّ، واستنبتوا فيه رموزهم ومضامين عقيدتهم..."[16]، فهيمنت المسيحيّة على الأدب العربي وأحكمت قبضتها عليه كنوع من التّجديد المطلوب، فضرب على التّراث الأدبي العربي بسور ظاهره فيه التّجديد ، وباطنه فيه الهدم والتّغيير، حتّى إنّ جورجي زيدان ليعتبر أنّ من أسباب تفوّق جبران خليل جبران؛ هو تجاوزه للتّراث العربي القديم –الّذي أساسه اللّغة العربيّة والثّقافة الإسلاميّة– إلى التّراث اليوناني والنّصراني[17].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إنّ المسيحيّة لم يكن لها علاقة لا من قريب ولا من بعيد بأدبنا العربي، لولا جهود هؤلاء الأدباء، وكانت معزولة عن الحياة الأدبيّة وبفضلهم دخلت إلى نتاج عدد كبير من أدبائنا –حتّى المسلمين منهم– إذ راحوا يوظّفون الرّموز المسيحيّة[18]، على أنّها جزء مهمّ من الحداثة الأدبيّة: "وعلى أيّة حال، فقد فرض النّصارى ألفاظهم ورموزهم ومصطلحات دينهم، ومضامين عقيدتهم ومحتويات فكرهم على ساحة الأدب العربي الحديث بصورة قويّة وواضحة "[19]، ومن خلال ذلك يتّضح جليّا أنّ جماعة الرّابطة القلميّة اتّخذت من الحداثة بأوجهها العديدة وسيلة لنشر النّصرانيّة عقيدة وسلوكا، وحتّى منهجا وتمسّكوا بزمام الأدب، ومارسوا دور المهيمن القويّ على الحياة الفكريّة وجعلوا من الأدب العربي الحديث أرضا خصبة لغرس المفاهيم والألفاظ المسيحيّة، لأنّهم كانوا على يقين تامّ من امتلاك الأدب لجاذبيّة لا تقاوم[20]، ومن أحسن منه للتّعريف بدينهم ومعتقداتهم.

وبفضل استعارة الألفاظ من الإنجيل والتّوراة، واعتماد أسلوبهما في التّعبير، وإفراغ اللّغة الأدبيّة كليّا من مدلولاتها القديمة الّتي ارتكزت أساسا على الدّين الإسلاميّ وشحنها بمدلولات مسيحيّة ترسّخ الفكر المسيحيّ في أعمال هؤلاء، وكلّ من اقتفى أثرهم، فأعمالهم هي من أبانت عن فكرهم صراحة، ممّا يعني أنّنا سنجد أنّ الأسس المسيحيّة هي أولى المحاور الفكريّة عند شعراء الرّابطة القلميّة لاسيما جبران ونعيمة[21]، ومن بين هذه الأسس، والّتي امتلأت بها مؤلّفات أرباب الرّابطة –الشّعريّة والنّثريّة– والّتي أخذت نصيبا وافرا وكبيراً من أدبهم هي؛ نشر معاني التّسامح والتّسامي الكامنة في الدين المسيحيّ[22] –حسب رأيهم– كما أنّ هاته الأسس هي من كانت سببا في وسم أدبهم بالأدب المهموس، فالرّوحانيّة المسيحيّة الّتي تحلّى بها الرّابطيّون، وبكلّ ما فيها من شعر رقيق ومرهف هامس–كما يعتقدون– هي الّتي خلقت الهمس في أدبهم[23]، فلا غرابة إذن، أن يكون الفكر عند جبران وصحبه في الرّابطة، هو أساس الكتابة الجيّدة وأنه مناط كلّ شيء، ذلك أنّ فكرهم في مجمله انعكاس للدّين المسيحيّ وتعاليمه، فهذه الرّابطة ما قامت إلّا لأجل هذا السّبب فقد تكوّنت ومن أوّل وهلة: "على أساسين فكريّين اعتقاديّين هما: النّصرانيّة والثّقافات الأجنبيّة من آداب الغرب وفلسفاته "[24] وهكذا كان الدّين المسيحيّ بالنّسبة لهم أساس كل الأفكار والفكرة الأسمى الّتي تحلّقوا حولها، لاسيما إذا علمنا أنّ: "كلّ فكرة دينيّة تعطي

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الشّعر قوّة لأنّها تخلق قيماً جديدة تنغرس في طباعهم وفكرهم، ومن هنا تبرز عظمة الفكر الدّينيّ،كونه أحد الوسائل الّتي اعتمدها الشّعراء في التّعبير عن أفكارهم وتقريبها، وزيادة إيضاحها للتّأثير في السّامع ..."[25] ، وهذا كان مبتغاهم الأوّل والأخير، التّأثير على المتلقّي وخلق شعراء يفكّرون ويكتبون من منطلق مسيحيّ.

وقد ابتدعوا صوفيّة خاصّة بهم، قوامها الدّين لا تخلو من آثار مسيحيّة، وهي نزعة تميّز بها فكر شعراء الرّابطة لاسيما جبران ونعيمة ونسيب عريضة [26]، وتجسّد هذا الفكر في أعمالهم وهذه الآثار (المسيحيّة) هي من تمنح للأدب الخلود كما قال بذلك ميخائيل نعيمة: "قد يُخطئ الإنسان اليوم في حكمه على أثر من الآثار... فالأثر الخالد لا يموت والميّت لا يعيش، ولا يخلد من الآثار إلّا ما كان فيه بعض من الرّوح الخالدة"[27]، وهذه الرّوح الخالدة من المصطلحات الّتي تتردّد عندهم كثيراً ويقصدون بها تعاليم دينهم المسيحيّ.

إنّ طغيان الثّقافة المسيحيّة على الفكر العربيّ، واحتواء أدبنا لكثير من هذه الثّقافة يرجع الفضل فيه أوّلا وآخرا إلى جبران ورابطته، فالعالم العربيّ لم يخل يوما من مسيحيّين اتّخذوا اللّغة العربيّة لغتهم، ولكنّهم لم يتمكّنوا من التّعبير عنها وبها عن كلّ اصطلاحاتهم الدّينية لاعتبارات عدّة، ولم يجرؤ أحد من قبلهم (أعضاء الرّابطة القلميّة) أن يحشد الألفاظ المسيحيّة وتعابيرها وأساليبها في ثنايا الأدب العربيّ خاصة إذا علمنا أنّ هذه الألفاظ الدّينيّة بقيت على لفظها ومعناها، حتّى بعد ترجمة الإنجيل والتّوراة[28]، فلا جبران ولا جماعته توانوا لحظة في إقحام الثّقافة المسيحيّة داخل أدبنا العربيّ، ليس لأنّهم كانوا من عشّاق التّجديد، ولا لأنّهم أرادوا أن يخدموا الأدب العربيّ، بل لأنّهم أرادوا قلب الموازين، وترجيح الكفّة لصالح الدّين المسيحيّ والأدب الغربيّ كما أنّهم اعتبروا أنّ الأدب عالميّ وملك للجميع ولكلّ الثّقافات، فنسفوا الثّقافة الإسلاميّة وأحلّوا محلّها الثّقافة المسيحيّة كأفضل خيار، وجعلوها ناسخة كلّ الثّقافات، فشعراء المهاجر كانوا بحقّ: "رأس حربة للغزو الفكريّ، والاستقطاب العقائديّ لصالح الغرب، وقد انطلقوا في مواقفهم العدائيّة للأمّة، من منطلق عقائدهم النّصرانيّة"[29]، فالفكر الغربيّ وآداب الغرب أساسهما؛ الاعتقاد النّصرانيّ، وهم مسيحيّون، إذن لا ضير عندهم من تقمّص هذا الفكر .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وإنّه بمجرد إلقاء نظرة خاطفة على أعمال الرّابطة القلميّة وفكرها، يظهر لنا جليّا تربّع المضامين النّصرانيّة على عرشها، حتّى ليخال أنّ هذه ليست إلّا مؤسّسات تبشير بالدّين النّصرانيّ[30]، فالأدب ليس بالأمر المسلّي والتّرفيهي، كما يتوهّم بعضهم، كما أنّه ليس بالشيء الهيّن، فهو طريقة تفكير وأسلوب حياة، وهو قبل كلّ ذلك اعتقاد. واختيار هؤلاء الأدب للتّعريف بدينهم ومعتقداتهم اختيار ذكيّ، ويعدّ بحدّ ذاته وسيلة من وسائل التّنصير، فمن خلاله تمَّ دسّ الأفكار المشوّهة، على صورة أدب[31]، والأمر في حقيقته أبعد من ذلك بكثير، وعليه لا داعي أبداً من الاستغراب إذا تمَّ العثور على المضامين غير العربيّة والإسلاميّة في كثير من جوانب أعمال الرّابطة ومقلّديها، ولا عجب لربط هؤلاء شعرهم ونثرهم برموز مسيحيّة كالصّلب والأجراس والمعابد والمذبح والكنيسة[32]، لأنّ كلّ ذلك من نبت الثّقافة المسيحيّة الّتي تربّوا عليها، وبذلك يمكن اعتبار إنتاج جبران وإنتاج زملائه في الرّابطة القلميّة إنجازا كبيرا يحسب لهم، فاق كلّ التوّقعات، وأنّه إضافة جدّ غنيّة للتّراث المسيحيّ في الأدب العربيّ، لأنّه في أعمالهم بدأت تلك الرّوح تظهر حقّا في الأدب، وجسّد أدبهم مواقف مسيحيّة، لم نعهدها من قبل في الشّعر، وقد أخضعوا الأدب لهذه الرّوح وتناولوا مواضيع لم يسبق معالجتها في الأدب العربي، إذ ثمّ اقتباس هذه المواضيع من الكتاب المقدّس، ومنذ تلك الحقبة حلّت رؤيا مسيحيّة للأمور، وبطبيعة الحال كان جبران خليل جبران هو السّباق لذلك كعادته، فهو الّذي طالما آمن بفكرة الحبّ الأشمل القائمة على الإنجيل وافتتانه بشخص المسيح[33]، كما حاولوا تقمّص هذه الشّخصيّة (شخصيّة المسيح) وذلك من خلال طرح المشاكل ومحاولة اقتراح حلول مناسبة لها، وذلك على نهج المسيح وطريقة الإنجيل لذلك نجد أنّ: "الأغراض الرّئيسيّة عند مدرسة المهجر أكثرها يتّصل بالمشاكل الدّينيّة ويجنح لإحياء مذاهب هرمة شائخة"[34]، هي في الأصل لا تخدم أدبنا العربيّ على الإطلاق، لأنّها ليست من جنس ولا أصل أدبنا .

وإذا تركنا الجانب الفكريّ الدّينيّ الّذي أقام عليه أصحاب الرّابطة أعمالهم، وانتقلنا بعدها إلى كشف أسلوبهم في ذلك فالأمر سِيَّان، إذ لم يخرجوا عن إطار المسيحيّة وكتبها، فإن كان فكرهم دينيّاً مسيحيّاً، فإنّ أسلوبهم توراتي إنجيلي، لأنّه حسب رأيهم ليس هناك أسلوب أدبيّ يضاهي أسلوب كتبهم المقدّسة: "فالسّمات الأساسيّة للأدب المهجريّ هي سمات الأسلوب

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

العربيّ المسيحيّ، وتتمثّل في الحرص على الوضوح أكثر من الحرص على أناقة التّعبير...كما تتمثّل في المعجم البسيط المتأثّر بأسلوب الإنجيل"[35]، فنعيمة يرى في الإنجيل أنموذجا أدبيّا رائعا، والمسيح عنده الأديب المثاليّ[36]، أمّا جبران فيجزم أنّ النّبيّ يسوع هو الشّاعر الأمثل الّذي علّمهم أصول الشعر وقواعده وفي ذلك يقول: "إنّ يسوع الجليليّ مقيم في قلبي... الشّاعر الّذي يصنع الشّعراء من جميعنا"[37]، ولقد اتّخذ جبران وصحبه من المسيحيّة جمهوريّة رئيسها المسيح، وهم حاملو لوائها في الفكر والأدب، وكلّ من خرج عن حدودها فهو جاهل بقواعد الحياة والفن والأدب، كما اعتبر أنّ الكتابة الجيّدة هي من كانت على منوال الأسفار القديمة وأسلوبها حيث قال لأخيه بطرس: "لقد نسي النّاس فن الكتابة يا بطرس، وانشغلوا عنه برصف الكلام، فلا روح ولا جمال في ما يكتبون، ولو عادوا إلى سفر أيّوب والمزامير، ونشيد الأناشيد لعرفوا أنّ العواطف إذا ما فارت الأفكار إذا ما ثارت ضاقت دونها القوالب المحدودة وغصّت بها المجاري المألوفة، لكنّهم لا عواطف فيهم تفور، وينظمون كما لو كانت لهم عواطف، ولا أفكار لهم تثور، وينثرون كما لو كانوا ذوي أفكار، فهم أموات في ما ينظمون وينثرون"[38]، ونحن لا ندري ما الّذي كان يقصده جبران بكلامه هذا، أكان يرمي إلى توجيه الكتابة العربيّة على طريقة الإنجيل والكتب المقدّسة، أم الطّعن صراحة في أسلوب القرآن واللّغة العربيّة، فالكلام الّذي ذهب إليه جبران لا أساس له من الصّحة ولا يعدو أن يكون مجرد ترّهات تهدف إلى تقويض أركان الأدب العربي ودعائمه الّتي قام عليها ردحا من الزّمن، وتعويضها بالمسيحيّة كخطوة منهم لبسط هيمنة فكريّة مسيحيّة في ساحة الأدب فلطالما: "عمد جبران ومدرسة المهجر الشّمالي، إلى إعلاء أسلوب التوراة، واتّخاذ مزامير داوود وكتابات العهد القديم نمطا من أنماط الكتابة العربيّة كخطوة تالية الّتي حاول مترجمو الكتاب المقدّس إلى اللّغة العربيّة حين رفضوا وضعه في الأسلوب الفصيح، وأصرّوا على بقائه في أسلوب العاميّة، ثمّ جاء جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وغيرهم فحاولوا أن يتّخذوا من هذا الأسلوب منهجا في الكتابة"[39]، ربّما لأنّ أكثر ما يميّز هذا الأسلوب هو تلك السّهولة ذات الطّابع العاميّ، أوليس هذا كان من أهمّ مطالبهم الّتي سعوا إلى تحقيقها، ومن هنا يمكن القول إنّ أسلوب التّوراة والإنجيل هو المكوّن الأوّل لأسلوبهم الكتابي، والتزام المهجريّين بهذا الأسلوب والّذي قلنا فيه إنّه خضع لترجمة هذه الكتب بالعاميّة[40]، قد جنا على الأسلوب العربيّ، فلم يعطوه حقّه

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

من البلاغة العربيّة وبتقبّلنا لهذا النّوع من الأسلوب في أدبنا العربي نكون قد أعطينا الفرصة لهؤلاء بمحو أسلوب عربيّ عريق، وإحلال: "أسلوب جديد مستغرب يصادم مفاهيم البلاغة ويعلي عليها صيغة التّوراة والمجاز الغربيّ"[41]، وهذا ما يؤدّي حتماً إلى تغيّير قيم الأدب العربيّ.

ولأنّ أسلوب التّوراة كان هو المثال الأدبيّ الأوّل الّذي تأثّرت به جماعة الرّابطة، فقد حفلت كتاباتهم بكثير من الصّور والألفاظ والتّعابير الّتي استلهموها من الأسفار[42]: "فليس من العسير أن يستشفّ القارئ في آثار جبران الأولى والأخيرة تقمّصات الكتاب المقدس وأسلوبه ومعانيه وصوره وذهوله وخياله، فقد كان جبران يحسب ذاته نبيّا وفي أعماق ضميره كان يقتفي أثر الكتاب المقدّس ليضع كتابه النّبويّ الخاص به"[43]، ويمكن أن نرجع هذا التّأثر الكبير عند الرّابطة القلميّة بالكتب المقدّسة كما أسلفنا، إلى النّشأة الأولى لهؤلاء، لأنّه حسب الرّوايات لم يكن هناك بيت في جبل لبنان يخلو من نسخة من الكتاب المقدّس، وهذا الكتاب فيه مسحة رومانسيّة ذات نفحة روحيّة خرجت عن عقال القواعد المنطقيّة الّتي حاول هؤلاء التّنصّل منها، ورومانسيّة هذا الكتاب تسرّبت إلى نفوسهم وتمكّنت منهم حتى أنشؤوا أدبا يماثلها في الرّؤيا والانفعاليّة، وكلّ ذلك نجم عن إدمانهم على تلاوة الكتب المقدّسة، فهي مستودع أفكارهم والينبوع الدّائم الّذي كان يمدّهم بالغذاء الفنيّ والرّوحيّ [44] ويضمن لأدبهم الخلود.

وكثيرا ما تتردد عبارة "الأسلوب الجبراني" عند أدبائنا على أنّه خلق وابتكار جديد منه ولكن في حقيقة الأمر أنّ هذا الأسلوب ما هو إلّا وجه آخر لأسلوب الكتاب المقدّس الّذي تأثّر به جبران، كما يمكن اعتباره الوريث المباشر "لمرّاش" أحد الكتّاب المسيحيّين الّذين كان لهم الفضل والسّبق في الكتابة بهذا الأسلوب، وبغزو الثّقافة المسيحيّة في الأدب العربيّ[45]، فكتب: "النّبيّ" و"السّابق" و"يسوع ابن الإنسان" لجبران كلّها تشهد على مدى عمق تأثّره بأسلوب الكتاب المقدّس وبالأجواء الإنجيلية البروتستانتيّة[46]، وفي هذه الكتب نلمح كذلك الصّورة التّوراتيّة المنتشرة بكثرة في صفحاتها[47]، فصورهم المجازيّة، واستعاراتهم كلّها كانت بتأثير من هذه الكتب، فهؤلاء كانت لهم القدرة على إظهار الطّابع المسيحيّ من خلال المعجم الشّعري والرّموز وحتّى الأفكار إظهارا تاما[48]، بلا أدنى شكّ.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وحتّى لو تتبعنا الإيقاع الموسيقيّ في أشعارهم فإنّنا لا نعدم البتّة ذلك الإيقاع الموسيقيّ للتّراتيل المسيحيّة والتّرانيم البروتستانتيّة فيها وهذا ما كان سببا في إهمال قواعد القصيدة العربيّة والتزام العروض الإنجليزي الّذي وافق تلك التّراتيل والتّرانيم[49]، وبعد كلّ هذا يتبيّن لنا أنّ أفكار الشّعراء المهجريّين، ومعظم ألفاظهم وقوالب تعبيرهم وأساليبهم وأنظمة القوافي عندهم تأثّرت بشكل كبير ومباشر بتلك التّرجمة البروتستانتيّة للكتاب المقدّس[50].

هذا هو الأدب الّذي أراده لنا أدباء الرّابطة القلميّة، أدب مسيحيّ الفكر والنّظرة والمضمون مسيحيّ اللّغة والأسلوب، أدب يكونون هم أربابه وأصحاب الفضل والسّبق فيه، أدب كلّما كتب على نهجه، ذكروا هم على أنّهم الأنموذج الأمثل له، أدب يلغي ما قبله ويتربّع على عرش أدبنا العربيّ، أدب يقف على الطّرف النّقيض للأدب العربي لأنه لا يحمل من صفاته إلّا الوسيلة الّتي كُتب بها.

3/ معجم الثّقافة المسيحيّة:

ونقصد بمعجم الثّقافة المسيحيّة ذلك الزّخم الهائل من المعتقدات والطّقوس والألفاظ والعبارات المسيحيّة، وأسلوب الكتاب المقدّس الّتي أقحمها أدباء الرّابطة القلميّة في الأدب العربيّ فضلا عن تلك الاقتباسات من الكتب المقدّسة الّتي وردت في أدبهم. وهذه كلّها مجتمعة تشكّل مجمل الثّقافة المسيحيّة الّتي دخلت غمار الأدب بفضلهم، وراح أدباؤنا يتمثّلونها ويُضمّنونها أعمالهم على أنّها جديد لابدّ منه لكي يتمّ مواكبة التّطوّر الحاصل ومجاراته، وأنّ هذه الألفاظ والرّموز المسيحيّة ممّا يزيد العمل الأدبيّ قوّة وجمالا، هكذا صوّرها أدباء الرّابطة القلميّة، والآن سنستعرض بعضا من هذا المعجم من خلال:

أ/ المعتقدات والطّقوس:

هي كلّ ما يعتقده النّصارى في ملّتهم من عبادات وعقائد باطلة شرعا، والّتي أراد أدباء الرّابطة أن يعكسوها في أدبهم، وهي في مجملها منافية لمعتقداتنا الإسلاميّة، وظهور هذه المعتقدات في أدبنا يخلق بعض الشّك لدى أصحاب النّفوس الضّعيفة، خاصّة إذا ما علمنا أنّ أدباء مسلمين راحوا يحدون حدوهم، ومن بين هذه المعتقدات نجد:

أ.1.عقيدة التّثليث:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والقائمة عندهم على الأب والابن وروح القدس، فالأب يمثل الله والابن هو المسيح وروح القدس هو جبريل، والقضيّة هنا أكبر من كونها مجرّد ثالوث، لأنّ الأمر خرج عن المعقول حينما جعلوا من الله أبا لعيسى ابن مريم –عليه السّلام– وجعلوا من عيسى إلهاً يعبد من دون الله، كما جعلوه مخلّصهم من العذاب، حينما ضحّى بنفسه لأجل تحمّل خطيئة البشريّة، وفي ذلك نلفي نعيمة يقول في إحدى قصصه: "...وقد قام عليها صليب أعلاه في السّماء، وأسفله في الأرض والله قد بسط ذراعيه (وهنا فيما نظنّ إشارة إلى المسيح) ليتقبّل كل عائد إليه من أبنائه مثلما تقبّل ذلك الوالد في الإنجيل ولده الضّال بعدما اغترب عنه غربة طويلة بمداها وأوجاعها..."[51] ففي هذا القول نلمس عقيدة التّثليث بوضوح، وهذه العقيدة قد سيطرت على أفكارهم وتحقّقت في نتاجهم الأدبي خاصة، وذلك عندما تحدّث عن ثلاثة وجوه وهي: بوذا، لاوتسو، ويسوع، كما تحدّث عن مثلّث الحياة[52]. فالحياة في نظرهم ثلاثة ولا قيمة بعدها لأيّ أمر آخر، ويبدو أنّهم فهموا الدّين على أساس ذلك فالله بالنّسبة إليهم يجسّد في صورة إنسان، وإذا بحثوا عن الله وجدوه في الأرض مع عيسى ابن مريم –عليه السّلام– حتّى أنّ صلواتهم تقرّ بذلك بشكل مستمر، فجبران يكرّر ذلك في صلواته وابتهالاته: " أبانا الّذي في الأرض والسّموات، ليتقدّس اسمك لتكن مشيئتك معنا كما هي في الفضاء"[53]، إذن هم يصلّون لعيسى إله الأرض والسّماء – كما يعتقدون– ويرى نعيمة أنّ المسيح كان دائما يدعو لهم بالمغفرة في صلواته إلى أبيه حيث كان يقول (أي عيسى –عليه السّلام–): "أبتاه اغفر لهم لأنّهم لا يعلمون ماذا يفعلون"[54]، ومعاذ الله أن يكون الله عزّ وجلّ أبّا لعيسى، ولا لعيسى أن ينسب ذلك لنفسه، تأمّل قول الله سبحانه وتعالى في سورة المائدة: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ، قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾[55]، فهذا تأكيد واضح وصريح من الله عزّ وجلّ بتكذيب ألوهيّة عيسى، وبقول عيسى بذلك، فما كان له أن يقول ذلك وهو رسول الله، وما كان ينبغي له ذلك، وكلّ ما جاء في كتبهم هو أكاذيب وتحريفات نسبوها لله سبحانه وتعالى ولرسوله عيسى –عليه السّلام–.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولهم في هذه العقيدة فلسفة غريبة أيضا، لا يكاد يستوعبها عقل بشر عاقل، لكثرة ما فيها من التّعقيد، والضّلال وهي فلسفة الإله المتأنّس، والإنسان المتألّه؛ أي ذلك الإنسان الّذي يسمو بأعماله وأخلاقه إلى مرتبة الإله أو ما شابه ذلك، ولنقف عند هذه الفلسفة فيما قاله نعيمة: "لكنّني إذا حدّثتك عن المذود فإنّما أحدّثك عن مهد الإله المتأنّس، وإذا ذكّرتك بالصّليب، فإنّما أذكّرك بعرش الإنسان المتألّه، وإنّما أدعوك إلى تفقّد قلبك، فأنت لو تفقّدته لوجدت في سويدائه مهدا للإله المتأنّس فيك، وعرشا للإنسان المتألّه"[56]، حقّا إنّها فلسفة غريبة وضالّة، وحسب نعيمة فإنّهم في دينهم هذا وعقيدتهم هاته كلّهم آلهة وكلّهم بمرتبة الإله، وإنّ هذا لقول إفك.

أ.2.عقيدة الصّلب والفداء:

قبل التّطرّق لحيثيّات هذه العقيدة تجدر الإشارة هنا إلى أنّه ثمّ ذكر لهذه الواقعة في ديننا ولكن على غير الوجه الّذي يراه النّصارى في معتقدهم، فقد ورد في القرآن الكريم؛ أنّ عيسى ابن مريم – عليه السّلام– لم يصلب كما أرادوا له، بل رفعه الله جلّ جلاله إليه، وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ، وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ، وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا إِتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا، بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيمًا﴾[57]، أمّا ما يعتقده هؤلاء فهو مخالف كلّيّا لما جاء به القرآن، فهم يجزمون يقينا أنّ المسيح –عليه السّلام– قد تمّ صلبه وهذا الصّلب كان تضحيّة منه في سبيلهم وفداء لهم يقول نعيمة: "أما ترى أنّ المسيح بقطعه طريق الجلجلة إلى الصّليب وبارتفاعه على الصّليب"[58]، وقوله أيضاً: "لا أدري إن كان دم يسوع المصلوب قد غسل الخطيئة الجدّيّة عن العالم كلّه..."[59]، فقول نعيمة يبيّن هذا المعتقد، أي إنّ المسيح صلب فعلا فداء لقومه وهذا فيه من الغرابة ما فيه، وأصبح هذا المعتقد رمز تضحيّة يستلهمون منه أعمالهم، فجبران يذكر هذه القصّة كحادثة ستتكرّر مع كلّ واحد منهم حيث يقول: "أنت مصلوب ولكن على صدري والمسامير الّتي تثقب كفّيك وقدميك تخترق حجاب قلبي...وغدا إذا ما مرّ عابر طريق بهذه الجلجلة لا يميّز بين قطرات دمك وقطرات دمي، بل يسير في طريقه قائلا ههنا قتل رجل واحد..."[60] ، فهم في هذا الطّريق سواء، فطريق المسيح طريقهم، وهذا ما عبّر عنه ميخائيل نعيمة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بقوله: "أمّا الطّريق الّذي قطعه المسيح من المهد إلى اللّحد فهو الطّريق الّذي لا مناص لي ولك من قطعه"[61]، أجل كلّنا سنعبر الحياة إلى الموت، ولكن بقدر الله، والحقيقة المؤكّدة هنا الّتي غابت عن النّصارى أنّ المسيح لم يقبر بعد، ولم يوارى جسمه الطّاهر الثّرى، هذه عقيدتنا نحن المسلمون والّتي جاءت واضحة في ديننا الحنيف.

أ.3.عقيدة الغفران:

إذا كان المسيح في نظرهم هو مخلّص البشريّة حينما فداها بنفسه، فإنّ النّصارى قد منحوا امتيازات أخرى تجعلهم إلى الله وجنّته أقرب هذا ما يعتقده كلّ مسيحيّ يؤمن بهذه العقيدة، لأنّ الغفران هو ما يرجوه كلّ واحد منهم، ويمنح لهم صكّ الغفران هذا بعد القيام بالاعتراف فقط وهذا المعتقد هو ما يشير إليه جبران في قوله هذا: "زرت في حداثتي قدّيسا في صومعته الهادئة القائمة بين التّلال، وفيما كنّا نبحث ماهيّة الفضيلة، أطلّ علينا لصّ، وهو يتعرّج على الجانبين فوق الرّوابي والتّعب قد أعياه وعندما وصل إلى الصّومعة جثا على أماما القدّيس، وقال له: أيّها القدّيس الشّفيق قد جئتك طالبا تعزيّة، فإنّ آثامي قد تعالت فوق رأسي"[62]، وبهذه الطّريقة يتخلّص المسيحي المذنب من كلّ خطاياه في الدّنيا، أمّا في الآخرة، فلهم مكان يلجؤون إليه ليتطهّروا كليّا منها واسمه المطهر وهو مكان تطهّر فيه أنفس الأبرار بعد الموت بعذاب له أجل محدود، وهذه الأمور لا يعلم بدقائقها إلّا المتضلّعون بالمسائل الرّوحيّة والغيبيّة ، فهم أصحاب الفضل في التّطهير هذا، وجبران يذكر أنّ الخوري سمعان كان أحد هؤلاء، كما ذكره على أنّه كان: "متعمّقا بأسرار الخطايا العرضيّة والمميتة، متضلّعا بخفايا الجحيم والمطهر والفردوس"[63]، وهكذا يقابل المسيحي ربّه وهو طاهر من كلّ آثامه، وهذا طبعا حسب معتقدهم دائما.

هذا فيما يتعلّق بمجمل معتقداتهم الباطلة، والّتي أفردوا لها صفحات من مؤلّفاتهم فدنّسوا من خلالها الأدب العربي الّذي طالما كان قائما على أسس سليمة أساسها الإسلام. وإذا ما تركنا هذا الجانب وانتقلنا للحديث عن طقوسهم، فنجد نعيمة يُحدّثنا عن طقوس الولادة وما يصنعونه بالمواليد الجدد حيث قال: "...وإذا الكاهن الّذي عمّدني قد غمسني في الماء بدل الثّلاث أربع مرّات، فحوّل البركة إلى لعنة"[64]، كما نجدهم كثيرا ما يسوقهم الحنين إلى تذكّر طفولتهم الّتي كانوا فيها مشدودين إلى دينهم، فقد صوّروا كيف كانوا يهرعون إلى الكنائس في الأعياد وفي أيّام

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الآحاد وفي مناسبات التّعميد والزّواج وغيرها من المناسبات الدّينيّة التي تتّصل بالكنيسة من قريب أو من بعيد، وإنّنا لنجد قصيدة الأجراس لميخائيل نعيمة أكبر شاهد على هذا وفيها يقول:

قُوْلوا لِرِفَاقِي يَجْتَمِعُوا
فَالشَّمْسُ رُوِيداً تَرْتَفِعُ
وَالْيَومَ الْعِيدُ وَرَبُّ الْعِيدِ
يُنَادِينَا أَوَ مَا سَمِعُوا؟
دِنْ. دِنْ. دِنْ. دِنْ
النَّاسُ تَسِيرُ إِلَى الْقُدَّاسِ[65]

ففي هذه المقطوعة يصوّر لنا نعيمة كيف أنّهم كانوا يتوجّهون صوب الكنيسة في العيد أو القدّاس بمجرّد سماع صوت الجرس يدقّ، وصوت الجرس ما هو في الحقيقة إلّا إلّا صوت الرّب يُناديهم.

كما نجد أنّ جبران يحدّثنا عن طقوس الموت عندهم فيقول: "أشعلوا الشّموع وأوقدوا المباخر حول مضجعي وانثروا أوراق الورد والنّرجس على جسدي، وعفّروا بالمسك المسحوق شعري واهرقوا الطّيوب على قدمي، ثمّ انظروا واقرأوا ما تخطّه يد الموت على جبهتي..."[66] ، هذه هي طقوسهم في توديع موتاهم في شريعتهم، وقد صوّرها جبران بكلّ تفاصيلها.

ب/ الألفاظ:

ونريد بالألفاظ المسيحيّة، ما أدخله أدباء الرّابطة القلميّة إلى أدبنا العربيّ من اصطلاحات دينيّة لأهل الكتاب، لاسيما بعدما نقلت التّوراة والإنجيل إلى اللّغة العربيّة[67] والمتأمّل في كتاباتهم يجدهم يوظّفون هذه الاصطلاحات والرّموز بشكل بارز وكثيف، فجبران يكشف عن تأثّره بهذه الألفاظ الموغلة في الزّمن، وعن ولعه بمحاكاة لغة الكتاب المقدّس[68]، ومن هذه الألفاظ والمصطلحات نجد على سبيل العد لا الحصر:

ب.1.الصّليب

وهو بالنّسبة إليهم يعدّ رمزا للمعاناة، ففي قصيدة لنسيب عريضة بعنوان "على الطّريق" إشارة لذلك إذ يقول:

شَقَيْنَا بِحَمْلِ صَلِيبِ الزَّمَانِ وَلَكِنْ غَلَبَنَا الشَّقَا بِالْأَمَانِي [69]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فالصّليب يحيلهم مباشرة إلى المسيح وما عاناه، وأنّهم في هذه المعاناة سواء، وأنّهم صلبوا جميعهم في تلك اللّحظة الّتي صلب فيها المسيح لأنّهم على قلب رجل واحد، يقول جبران في هذا المعنى: "...ههنا صلب رجل واحد"[70]، فالمعاناة واحدة لم تتغيّر من عهد المسيح إلى آخر رجل مسيحيّ والّصليب إلى جانب كونه رمزا للمعاناة، فهو كذلك يرمز إلى تقديسهم لشخص المسيح ومحبّته فلا يمكنك أن تجد مسيحيّ ولا تراه يحمل محبّة كبيرة لهذا الرّمز، ونعيمة منهم إذ نلفيه يقول: "إنّ قلبي لعامر بمذوده وصليبه"[71]، ففي قلب كلّ مسيحيّ نقش المسيح وهو يعتلي الصّليب –كما يعتقدون– كما يعدّ الصّليب عندهم شارة للدّين المسيحيّ، كما الهلال عندنا رمزا للإسلام، وكم كانوا يبتهجون إذا ما علا الصّليب على الهلال، فها هو ذا إيليا أبو ماضي يصرّح بذلك علانيّة فيقول:

وَقَدْ انْجَلَتْ فِإِذَا الْهِلَالُ مُنَكَّسُ عَلَمٌ طَوَتْهُ رَايَةُ الصُّلْبَانِ [72]

لأنّ ذلك يعدّ انتصارا للمسيحيّة على الإسلام.

ب.2.الرّاهب والقدّيس:

لكلّ علم أربابه، وكذلك الدّين لا بدّ له من رجال يقومون عليه، فنحن في الدّين الإسلامي نملك الأئمة والفقهاء والمحدّثين، فكذلك للمسيحيّة رجالاتها، وقد اصطلحوا على تسميتهم بالرّهبان والقدّيسين (فهم مرشدوهم ومطهّروهم من الآثام)، يقول إيليا أبو ماضي موظّفا هذا الرّمز في قصيدة له بعنوان "النّاسكة":

فَمِلْتُ عَنْ رَاهِبَةِ الْحَقْلِ
وَسِرْتُ لَا أَلْوِي عَنْ ظَلِّي [73]

ويقول أيضا في قصيدته المشهورة "الطّلاسم":

إِنْ تَكُ الْعُزْلَةُ نُسُكًا وَتُقًى فَالذِّئْبُ رَاهِبْ [74]

ويقول جبران: "زرت في حداثتي قدّيسا"[75]، وهذه التّوظيفات للمصطلحات والرّموز المسيحيّة لدليل كبير على تعلّق هؤلاء بدينهم ورجالاته.

ب.3. الدّير والصّومعة :

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وهو المكان الّذي يختلي فيه المتعبّد ويمارس طقوسه وعباداته، ويجدون فيه الرّاحة والطّمأنينة يقول إيليا أبو ماضي دائما في قصيدته "الطّلاسم":

وَعَرِينُ اللَّيْثِ دِيرٌ حُبُّهُ فَرْضٌ وَوَاجِبْ

ثمّ يواصل ويقول:

إِنِّي أَبْصَرْتُ فِي الدِّيرِ وُرُودًا وَسِيَاجْ [76]

ويقول جبران في نفس السّياق: "...أمّا إذا شاء بلوغ محجّة الكمال فعليه أن يشعر بكيانه، أن يشعر بأنّه الطّفل المتكّل على أمّه...والعابد في صومعته"[77]، فهذه هي أماكنهم المقدّسة.

ب.4. الهيكل والمذبح:

الهيكل هو عبارة عن هيكل ماديّ للإله يهوه الرّوحي العظيم، وهو التّرتيب الّذي يستطيع بواسطته البشر الاقتراب إلى يهوه على أساس ذبيحة لاسترضاء التّكفيريّة الّتي قدّمها يسوع، أمّا المذبح فهو النّقطة المركزيّة للكنيسة، وهو عبارة عن شبه طاولة تقدّم عليها القرابين والهبات لغايات دينيّة، وهو مكان مقدّس تقام فيه الطّقوس[78]، وقد ورد ذكرهما كثيرا في أعمالهم، فجبران وظّف لفظ الهيكل في قوله: "وظلّ يمشي مع الشّعب حتّى وصلوا إلى السّاحة الكبرى أمام الهيكل"[79] فوصولهم إلى الهيكل يعني وصولهم إلى الله هكذا يرى جبران وكلّ مسيحيّ، ويقول أيضا: "...الحقّ أقول إنّ يوحنا بن زكريا هو آخر أبناء جنسه، وقد قتل كأسلافه بين عتبة الهيكل والمذبح"[80] فكلّ ما هو مقدّس يقدّم في هذين المكانين للإله، فقدسيّتهما اكتسباها من الإله نفسه لأنّه يحلّ فيهما أو يتواجد بهما.

ب.5. الأجراس:

وهي المظهر الإعلامي للشّعائر المسيحيّة[81]، كالأذان عندنا، ولنعيمة قصيدة تحمل هذا اللّفظ؛ "الأجراس"، وجعل من صوت الجرس لازمة له في نهاية كلّ رباعيّة وهي كما أشرنا سابقا: دن. دن .د. دن يقول فيها:

إِذَا مَزَّقَ سِتْرُ اللَّيْلِ صَدًى

عَرَفَتْهُ الْأُذُنُ وَمَا عَرَفَتْ

دِنْ. دِنْ...دِنْ. دِنْ... [82]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فالأجراس تدقّ للإعلان عن بداية الشّعائر والطّقوس الدّينيّة، وأصبح صوتها مألوفاً فهي ملازمة للكنيسة والصّلوات.

الابتهالات:

وهي ما يردّده المسيحيّون في صلواتهم وأدعيتهم وعباداتهم، ولنعيمة قصيدة بعنوان: "ابتهالات" يقول فيها:

وَافْتَحْ اللَّهُمَ أُذُنِي
كَيْ تَعِي دَوْمًا نِدَاكَ
مِنْ عَلَاكَ
...فِيْ ابْتِهَالَاتِ الْغُرَاةِ الْجَائِعِينَ [83]

ج/ الاقتباسات من الكتاب المقدّس:

كثيرا ما ضمّن أدباء الرّابطة القلميّة أعمالهم اقتباسات من الكتاب المقدّس تأثرا بها ورغبة في التّأثير كذلك، ومن هذه الاقتباسات نجد:

ينقل لنا جبران الكثير من أقوال المسيح وهو بصدد الدّفاع عنه، فقد ساءه أن ينعت المسيح بالرّجل الضّعيف المستسلم مع كلّ ما قدمه من قوّة وشجاعة وهو يواجه المتعنّتين له ولدينه، فهو لم يجد خيرا من أقواله للرّد على أولئك فيقول [84]: "أيّ رجل ضعيف مستسلم يقول (أي المسيح): (أنا الحياة وأنا طريق الحقّ) (إنجيل يوحنا 14:14)، وأيّ رجل وديع حقير يجرؤ أن يقول: (أنا في الله أبينا وإلهنا الأب فيّا)" (إنجيل يوحنا 14:14)، وهذا افتراء، ولا نظنّ أنّ المسيح قال بهذا وأبدا لن يقول بذلك، ثمّ يواصل فيقول: "وأيّ رجل يثق بالغد ويقدر أن يصرّح بمثل هذا الإعلان (إنّ عالمكم سيزول ويتحوّل إلى رماد تذريه الرّيح قبل أن تزول كلمة من كلماتي)[85] (إنجيل مرقس 13:14)، هذه كلّها اقتباسات ضمّنها جبران وهي تُبْدِي تأثّره الشّديد بالمسيح وبالكتاب المقدّس، فهو نقل كلمات قالها المسيح –عليه السّلام– وهي في الحقيقة منسوبة إليه وجعلها جزء من أدبه وليس ببعيد عن جبران نجد رفيقه ميخائيل نعيمة والّذي أبدى هو كذلك تأثّره العميق بالمسيح وبالإنجيل[86]، إذ قام هو الآخر باقتباسات كثيرة من الكتاب المقدّس لا تنمّ إلّا عن ولعه وتأثّره به فنجده يوظّف هذه الاقتباسات في قوله:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

"أحبّ قريبك كنفسك" (إنجيل متّى 19:19)، وكذلك: "لا تدينوا لئلّا تدانوا" (إنجيل لوقا 6:7)، وتوظيفه قول المسيح: "لا تهتمّوا قائلين ماذا نأكل أو ماذا نشرب أو ماذا نلبس...اطلبوا أوّلا ملكوت الله وبرّه وهذا كلّه يزاد لكم" (إنجيل لوقا 12:12)، ونجد أيضا اقتباس آخر في قوله: "اذهب وبع كل مالك وفرّقه على الفقراء وتعال اتبعني" (إنجيل متّى 19:19)

هذه بعض الاقتباسات الّتي قام هؤلاء الأدباء بتضمينها وهي نزر من فيض غزير، أراد أدباء الرابطة القلميّة من خلالها تثبيت عقيدتهم والزّهو بكونهم مسيحيّون –طبعا هذا حقّهم– ولكن بعيدا عن ساحة الأدب العربيّ الّذي لطالما لبس جبّة الإسلام، ولا يليق به غيره.

خاتمة:

وصفوة القول يمكننا أن نقول جازمين أنّ جماعة الرّابطة القلميّة هم أوّل من حشد التّراث المسيحيّ في ثنايا الأدب العربيّ، فأعطوا بذلك فرصة للثّقافة المسيحيّة بأن تزاحم الثّقافة الإسلاميّة في الأدب العربيّ، وجعلوا من الأدب ميدانا للتّعريف بعقيدتهم.

- إنّ شعر المهجر الشّمالي تأثّر في تجديده تأثُّرا كبيرا ومباشرا بالكتاب المقدّس الّذي تمّ ترجمته إلى العاميّة العربيّة، وظهر ذلك جليًّا في مؤلّفاتهم.
- إنّ ما قام به هؤلاء الأدباء، قد جنا بشكل كبير على أدبنا العربيّ، وجرّده من القيّم والأسس الّتي بني عليها.
- إنّ الثّقافة المسيحيّة هاته أصبحت من سيم التّجديد، وعلى كلّ مجدّد أن يقتفي أثرهم ويحدوا حدوهم، لكي يعدَّ مجدّد، وإنّ هذه الثّقافة تسلّلت إلى أدب أدباء مسلمين فصار المسلم يوظّف رموزاً مسيحيّة على أنّها الحقّ وقمّة الحداثة والتّجديد.
- وأخيرا لابدّ من صحوة أدبيّة إسلاميّة تقف وجها لوجه أمام هذا التّيّار المستحدث وتوقف زحفه، وإلّا أصبح الأدب العربيّ مجرّد وجه آخر للأدب الغربي المسيحيّ.

هوامش:

[1]/ الاتّجاهات والحركات في الشّعر العربيّ الحديث، سلمى الخضراء الجيّوسي، تر: عبد الواحد لؤلؤة، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، لبنان، 2001، ص 132

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

[2]/ التّجديد في شعر المهجر، أنس داود، دار الكتاب العربيّ للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، مصر، 1967، ص58

[3]/ أدب المهجر (دراسة تأصيليّة تحليليّة لأبعاد التّجربة التّأمليّة في الأدب المهجريّ)، صابر عبد الدّايم، دار المعارف للطّبع والنّشر والتّوزيع، القاهرة، مصر، 1993، ص79

[4]/ التّجديد في شعر المهجر، أنس داود، ص58

[5]/ مشكلة الهويّة والانتماء القومي عند العرب، جورج قرم، مجلّة العربيّ، الكويت، العدد 537، أغسطس، 2003، ص26

[6]/ النّثر المهجري (المضمون وصورة التّعبير)، عبد الكريم الأشتر، ج1، دار الفكر الحديث للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط2، 1964، ص65

[77]/ النّقد والنّقاد المعاصرون، محمّد مندور، دار القلم للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، د.ت، ص41

[8]/ المجموعة الكاملة لمؤلّفات جبران خليل جبران (نصوص خارج المجموعة)، جمع وتقديم: أنطوان القوّال، دار الجيل للطّباعة والنّشر، 1414هـ/ 1994، ص208

[9]/ خصائص الأدب العربي في مواجهة نظريّات النّقد الأدبي الحديث، أنور الجندي، دار الكتاب اللّبنانيّ، مكتبة المدرسة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط2، 1985، ص308

[10]/ المجموعة الكاملة لمؤلّفات جبران (نصوص خارج المجموعة)، أنطوان القوّال، ص 97

[11]/ في النّقد والأدب، إيليا الحاوي، ج4، دار الكتاب اللّبناني للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط2، 1986، ص277

[12]/ جدليّة أسلمة الأدب العربيّ (الإشكالية والمفهوم)، نصر الدّين إبراهيم أحمد حسن، مجلّة الدّراسات اللّغويّة والأدبيّة، ص238

[13]/ المجموعة الكاملة لمؤلّفات جبران خليل جبران(نصوص خارج المجموعة)، أنطوان القوّال،ص235

[14]/ الغربال، ميخائيل نعيمة، نوفل للنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط 15، 1991، ص 29

[15]/ الانحراف العقديّ في أدب الحداثة وفكرها (دراسة نقديّة شرعيّة)، سعيد بن ناصر الغامدي، مج2، دار الأندلس الخضراء للنّشر والتّوزيع، جدّة، السّعوديّة، 1424هـ/ 2003، ص818-819

[16]/ المرجع نفسه، مج2، ص824

[17]/ الثّابت والمتحوّل (صدمة الحداثة)، أدونيس، ج3، دار العودة للنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، 1978، ص156

[18]/ جدليّة أسلمة الأدب العربيّ (الإشكاليّة والمفهوم)، نصر الدّين إبراهيم أحمد حسن، ص219

[19]/ الانحراف العقدي في أدب الحداثة وفكرها، سعيد بن ناصر الغامدي، مج2، ص 818-819

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

[20]/ المرجع نفسه، ص822-828

[21]/ النّثر المهجري، عبد الكريم الأشتر، ج1، ص28

[22]/ أدب المهجر، عيسى النّاعوري، دار المعارف للنّشر والتّوزيع، القاهرة، مصر، ط3، 1977، ص 115

[23]/ النّزعة الإنسانيّة في شعر الرّابطة القلميّة، فصل سالم العيسى، دار اليازوردي العلميّة للنّشر والتّوزيع، عمّان، الأردن، 2006، ص 205

[24]/ النّثر المهجري، عبد الكريم الأشتر، ص 24

[25]/ الفكر في الشّعر الحديث، حافظ محمّد عبّاس الشّمري، مركز الكتاب الأكاديمي، عمّان، الأردن، 2013، ص 218

[26]/ حركيّة الإبداع (دراسات في الأدب العربي الحديث)، خالدة سعيد، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط3، 1406هـ/1986، ص 29

[27]/ الغربال، نعيمة، ص 26

[28]/ اللّغة العربيّة كائن حيّ، جورجي زيدان، دار الجيل للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط2، 1988، ص 63

[29]/ الانحراف العقديّ في أدب الحداثة وفكرها، سعيد بن ناصر الغاميدي، مج1، ص 77

[30]/ المرجع نفسه، مج2، ص 819

[31]/ الأدب العربيّ الحديث، مسعد بن عيد العطوي، مكتبة الملك فهد الوطنيّة، تبّوك، السّعوديّة، 1430هـ/ 2009، ص 56

[32]/ الأدب العربيّ الحديث ومدارسه، محمّد عبد المنعم خفاجي، ج2، مكتبة الأزهر للنّشر والتّوزيع، القاهرة، مصر، ص 262

[33]/ النّثر المهجريّ، عبد الكريم الأشتر، ص 36-37

[34]/ مجدّدون ومجترّون، مارون عبّود مؤسّسة هنداوي للنّشر والتّوزيع، القاهرة، مصر، 2012، ص 158

[35]/ الشّعر العربي الحديث (1800-1970) تطوّر أشكاله وموضوعاته بتأثير الأدب الغربي، س.موريه، تر وتع: شفيع السّيّد وسعد مصلوح، دار الغريب للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، مصر، 2003، ص 124

[36]/ أدب المهجر، صابر عبد الدّايم، ص 79

[37]/ المجموعة الكاملة لمؤلّفات جبران خليل جبران المعرّبة عن الإنجليزيّة، جميل جبر، دار الجيل للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، 1414هـ/ 1994، ص 231

[38]/ جبران خليل جبران، ميخائيل نعيمة، دار نوفل للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط13، 2009، ص 82

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

[39]/ الشّبهات والأخطاء الشّائعة في الأدب العربي والتّراجم والفكر الإسلامي، أنور الجندي، د.ط، د.ت، ص 163

[40]/ خصائص الأدب العربي، أنور الجندي، ص 295

[41]/ المرجع السّابق، ص 291

[42]/ المرجع نفسه، ص 293

[43]/ في النّقد والأدب، إيليا الحاوي، ج5، ص 21

[44]/ المرجع نفسه، ج5، ص 20-21

[45]/ الاتّجاهات والحركات في الأدب العربي الحديث، سلمى الخضراء الجيّوسي، ص 136

[46]/ في النّقد والأدب، إيليا الحاوي، ج4، ص 277

[47]/ النّثر الشّعري عند جبران خليل جبران، م.م سعد علي جعفر المرعب، مجلّة العلوم الإنسانيّة، كليّة التّربيّة للعلوم الإنسانيّة، مركز بابل للدّراسات الحضاريّة والتّاريخيّة، مج22، العدد الثّالث، أيلول، 2015، ص 8

[48]/ الشّعر العربي الحديث (1800-1970)، س.موريه، ص 123

[49]/ المرجع نفسه، ص 156-171

[50]/ المرجع نفسه، ص 171

[51]/ النّور والدّيجور، ميخائيل نعيمة، مؤسّسة نوفل للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط7، 1988، ص 233

[52]/ أدب المهجر، صابر عبد الدّايم، ص 267

[53]/ المجموعة الكاملة لمؤلّفات جبران خليل جبران المعرّبة عن الإنجليزيّة، جميل جبر، ص 228

[54]/ النّور والدّيجور، ميخائيل نعيمة، ص 233

[55]/ سورة المائدة، الآية 115-116

[56]/ النّور والدّيجور، ميخائيل نعيمة، ص 228

[57]/ سورة النّساء، الآية 156-158

[58]/ النّور والدّيجور، ميخائيل نعيمة، ص 230

[59]/ الغربال، ميخائيل نعيمة، ص 41

[60]/ المجموعة الكاملة لمؤلّفات جبران خليل جبران (نصوص خارج المجموعة)، أنطوان القوّال، ص 80-81

[61]/ النّور والدّيجور، ميخائيل نعيمة، ص 228

[62]/ مناجاة أرواح، جبران خليل جبران، المكتبة الثّقافيّة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، د.ت، ص 39

[63]/ المصدر نفسه، ص 58

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

[64]/ الغربال، ميخائيل نعيمة، ص 41

[65]/ همس الجفون، ميخائيل نعيمة، نوفل للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط6، 2004، ص 39-40

[66]/ المجموعة الكاملة لمؤلّفات جبران خليل جبران (نصوص خارج المجموعة)، أنطوان القوّال، ص 137

[67]/ اللّغة العربيّة كائن حيّ، جورجي زيدان، ص 63

[68]/ النّثر الشّعري عند جبران خليل جبران، م.م سعد علي جعفر المرعب، ص 8

[69]/ الأرواح الحائرة، نسيب عريضة، طبعة نيويورك، 1946، ص61

[70]/ المجموعة الكاملة لمؤلّفات جبران خليل جبران (نصوص خارج المجموعة)، أنطوان القوّال، ص81

[71]/ النّور والدّيجور، ميخائيل نعيمة، ص 230

[69]/ ديوان إيليا أبو ماضي، زهير ميرزا،دار العودة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص 56

[73]/ الجداول، إيليا أبو ماضي، دار كاتب وكتاب للنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، 1988، ص 125

[74]/ المصدر نفسه، ص 149

[75]/ مناجاة أرواح، جبران خليل جبران، ص 58

[76]/ الجداول، إيليا أبو ماضي، ص 149-150

[77]/ مناجاة أرواح، جبران خليل جبران، ص 37

[78]/ بوابة الأديان: Goodwin Alonzo T. 1977. P88/ http //ar .m.wikipedia.org

[79]/ المجموعة الكاملة لمؤلّفات جبران خليل جبران المعرّبة عن الإنجليزيّة، جميل جبر، ص82

[80]/ المصدر نفسه، ص 261

[78]/ أدب المهجر، صابر عبد الدّايم، ص 80

[82]/ همس الجفون، ميخائيل نعيمة، ص 39-40

[83]/ المصدر السّابق، ص34-35.

[84]/ المجموعة الكاملة لمؤلّفات جبران خليل جبران المعرّبة عن الإنجليزيّة، جميل جبر، ص 241

[85]/ الكتاب المقدّس (كتب العهد القديم والعهد الجديد)، دار الكتاب المقدّس بمصر، ط7،2011

[86]/ النّور والدّيجور، ميخائيل نعيمة، ص 229-230

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com